﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾

موجز في تفسير سورة الضحى

إعداد: سليمان بيضون

*** السورة الثالثة والتسعون في ترتيب سوَر المُصحف الشريف، نزلت بعد سورة «الفجر».**

*** سُمّيت بـ«الضحى» لابتدائها بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾. و«الضّحى»: هو انبساطُ الشمس وامتدادُ النهار. أما سُجُوّ اللّيل: فسكونُه وغشيان ظلمته.**

*** آياتها إحدى عشرة، وهي مكيّة، وفي الحديث النبويّ الشريف أنّ «مَن قرأها كان ممّن يرضاه الله، ولِمحمّدٍ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أن يشفعَ له، وله عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ يتيمٍ وسائل».**

*** ما يلي موجز في التعريف بهذه السورة المباركة اخترناه من تفاسير: (نور الثّقلين)، و(الميزان)، و(الأمثل).**

تذكر الروايات أنّ سورة (الضحى)، والتي تليها (الانشراح) سورة واحدة، ولذلك لا بدّ من قرائتهما معاً بعد سورة (الحمد) في الصلاة، لوجوب قراءة سورة كاملة بعد (الفاتحة) في الصلاة، ونظير ذلك في سورتي (الفيل) و(قريش).

ولو أمعنّا النظر في سورتَي (الضحى) و(الانشراح) لَألفينا ارتباط موضوعاتهما ارتباطاً وثيقاً يحتّم أن تكون الثانية استمراراً للأولى، وإنْ فصلتْ بينهما البسملة.

محتوى السورة

تبدأ السورة بقَسَمَين، ثمّ تبشر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بأنّ الله تعالى لا يتركه أبداً، ثمّ تبشّره بعطاء ربّاني تجعله راضياً، ثمّ تعرض له صوراً من حياته السابقة تتجسّد فيها الرحمة الإلهية التي كانت تشمله دائماً، وتحميه، وتسنده في أشدّ اللحظات.

وفي نهاية السورة تتكرّر الأوامر الإلهيّة برعاية اليتيم والسائل، وبإظهار النعم الإلهية شكراً لله تعالى عليها.

فضيلتها

*** عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «مَن قَرأها كان مِمّن يَرضاهُ اللهُ، ولِمحمّدٍ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أنْ يَشفَعَ له، ولهُ عشرُ حَسناتٍ بِعددِ كلّ يتيمٍ وسائل».**

*** وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَن أكثرَ قراءة (والشّمس)، و(واللّيل إذا يغشى)، و(والضحى)، و(ألم نشرح) في يومٍ أو ليلةٍ لم يبقَ شيءٌ بِحضرتِه إلّا شَهدَ له يومَ القيامةِ «..» ويقولُ الربُّ تباركَ وتَعالى: قَبِلتُ شَهادتَكُم لِعَبدي وأَجزْتُها لهُ، انطلِقوا بِه إلى جِناني حتّى يَتَخيّرَ منها حيثُ ما أحَبّ..».**

تفسير آيات من سورة الضّحى

قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ الآية:٥.

*** عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «يُعطيكَ مِن الجنّةِ حتّى تَرضى».**

*** وعنه عليه السلام: «رِضى جدّي أنْ لا يَبقَى في النّارِ مُوَحِّدٌ».**

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ الآيات:٦-٨.

* عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسير الآيات: ألم يجدكَ «**فَرداً لا مثلَ لكَ في المَخلوقينَ فآوَى النّاسَ إليكَ، وَوَجَدَكَ ضالّاً في قَومٍ لا يَعرفونَ فَضلَكَ فَهَداهُم إليك، وَوَجَدَكَ عائِلاً تَعُولُ أقواماً بِالعِلمِ فأَغناهُمُ اللهُ بكَ**».

* قال العلّامة الطباطبائي في قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾: «المراد بكونه صلّى الله عليه وآله وسلّم (ضالّاً) حالُه في نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى... وإنْ كانت الهداية الإلهية ملازمة لها منذ وُجدت... وقيل: المعنى: وجدك ضالّاً بين الناس لا يعرفون حقّك فهداهم إليك ودلّهم عليك».

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ الآية:٩.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**الذّنوبُ التي تحبِسُ غيثَ السماء: جَورُ الحكّامِ في القضاء ..**» **وظلمُ اليتيمِ والأرملة ..**».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ الآية:١٠.

* عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**لا تَقطعُوا على السّائلِ مسألتَه، فلولا أنّ المَساكينَ يَكذبون ما أَفلَحَ مَن رَدّهم**».

* وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**لو يَعلم السائلُ ما في المسألةِ ما سألَ أحدٌ أحداً، ولو يَعلم المُعطي ما في العطيّةِ ما ردَّ أحدٌ أحداً**».

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الآية:١١.

* الإمام الحسين عليه السلام: «**أمَرَهُ أنْ يُحدِّثَ بما أنعمَ اللهُ عليه من دِينِه**».

* الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا أنعمَ اللهُ على عَبدِه بِنعمةٍ فظَهرَت عليه سُمّي حبيبَ الله، محدِّثاً بنعمة الله، وإذا أنعمَ اللهُ على عبدِه بنعمةٍ فلمْ تَظهرْ عليه سُمّي بَغيضَ الله، مكذِّباً بنعمة الله**».

* وعنه عليه السلام: «**إنّي لَأكرهُ لِلرّجلِ أن يكونَ عليه من اللهِ نعمةٌ فلا يُظهرها**».

سبب نزول السورة

روي عن ابن عباس أنّه قال: «احتبس الوحي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خمسة عشر يوماً، فقال المشركون: إنّ محمّداً قد ودّعه ربُّه وقلاه (أي أبغضَه) ولو كان أمرُه من الله لَتتابع عليه، فنزلتْ السورة».

وروي أنّه لمّا نزلتْ قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لجبرئيل عليه السلام: «**ما جئتَ حتّى اشتقتُ إليك**».

فقال جبرائيل: «**وأنا كنتُ أشدَّ إليك شوقاً، ولكنّي عبدٌ مأمور، وما نتنزّلُ إلّا بِأمرِ ربّك**».

واختلفت الروايات في مدّة انقطاع الوحي، فقيل اثنا عشر يوماً، وقيل خمسة عشر، وقيل تسعة عشر، وقيل خمسة وعشرون، وقيل أيضاً أربعون. وفي رواية أنّها ليلتان أو ثلاث.

وعن جابر الأنصاريّ قال: «رأى النبيّ صلّى الله عليه وآله فاطمةَ عليها السلام وعليها كساءٌ... وهي تطحن بيديها... فدمعت عينا رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: (**يا بِنتاهُ تعجّلي مرارةَ الدّنيا بِحلاوةِ الآخرة**).

فقالت: (**يا رسولَ الله، الحمدُ لله على نَعمائه والشّكرُ للهِ على آلائِه**). فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾».

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ..﴾

النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله هو الوجودُ العينيّ لحقيقة القرآن

المرجع الديني الشيخ عبد الله الجوادي الآملي

يزخر القرآن الكريم بالآيات المبيّنة للمقام السامي للنبيّ الخاتَم صلّى الله عليه وآله وسلّم، والمهمّات الموكلة إليه من عند ربّه عزّ وجلّ، ويكفي لإجمال ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾. (الأنبياء:١٠٧)

وفي تفسير القسم الأوّل من الآية التاسعة عشرة بعد المائة من سورة البقرة وقوفٌ عند الدلالات البليغة لمفردات «الإرسال»، و«الحقّ»، و«البشارة»، و«الإنذار»، وشهادتها للحقيقة المحمّدية الخالدة. وقد اقتبسنا هذا النصّ من الجزء السادس من التفسير النوعيّ «تسنيم» للمرجع الديني الشيخ عبد الله جوادي آملي، بتصرّف يسير في العبارات.

«شعائر»

يخاطبُ الباري عزّ وجلّ رسوله الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم في الآية ١١٩ من سورة البقرة، بقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ..﴾. وههنا مسائل نشير إليها: إنّ من لوازم الإرسال أن يكون النبيّ صلّى الله عليه وآله «**عند**» المرسِل، ويأتي مِن عنده كي يبلّغ رسالته إلى الناس؛ وهذا يقودنا إلى أنّ للنبيّ صلّى الله عليه وآله – كما للقرآن الكريم – مقاماً عند الله، و«**لدى الله**». فاللهُ تبارك وتعالى يصرّح بخصوص القرآن الكريم، بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الزخرف:٣-٤.

وفي مقام «**لدى الله**» لا يجري الكلام عن اللفظ والمفهوم واللغة العبرية أو العربية؛ ذلك أنّ تلك المرحلة الوجودية هي مقدَّمة على السماء والأرض وهي قبل الجعل الاعتباري. فلا حديث عن سَنّ القوانين، والآداب، واللغات المختلفة، وما إلى ذلك إلّا في حدود عالم الطبيعة، وضمن نطاق المجتمع البشري؛ ولهذا، ففي منطقة الاعتبار البشري يصبح القرآن عربياً ومحكوماً بقوانين العربية. أمّا عند الله سبحانه وتعالى، وفي أمّ الكتاب فهو في منزلةٍ تعلو على اللغة واللسان الخاصّين: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الزخرف:٤.

وهذا الأمر يصدق في النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله أيضاً، فهو عند الله يتعلّم «**أمّ الكتاب**»، أمّا في عالم الطبيعة فيتلقّى «**القرآن العربيّ**»، وما ينقله للآخرين هو هذا القرآن العربيّ عينه.

وعلى هذا الأساس – أنّ القرآن الكريم كتاب لدنيّ ولدى الله، وأنّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله هو إنسان كامل لدنيّ ولدى الله أيضاً، وأنّه قد تعلّم هذا الكتاب في مدرسة الله عزّ وجلّ ومن عنده بلا واسطة، وليس بواسطة أو من عند غير الله؛ حيث: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ النمل:٦ – فإنّه يمكننا القول: إنّ الله هو

الذي «**أرسل**» النبيّ، وهو الذي «**أنزل**» القرآن؛ لأنّ إرسال الله وإنزاله يتفرّع من كون المرسَل والمنزَل موجوداً عند الله.

في عملية إرسال الله تبارك وتعالى للإنسان الكامل وإنزاله للقرآن الكريم من عنده، فإنّه يجعل من الأوّل أصلاً وقائداً للركب، ومن الثاني صاحباً ورفيق سفر، فيقول للناس: عليكم أن تتّبعوا النور القرآنيّ الذي أُنزل بمعيّة النبيّ صلّى الله عليه وآله: ﴿..وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ..﴾ الأعراف:١٥٧. فالذي يترأّس هذا الوفد المرسَل إلى الناس من جانب الله عزّ وجلّ، والمُشيَّع من قِبل الملائكة، هو النبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله؛ وبناءً عليه فإنّ العنصر الأساسي للرسالة هو «**الإنسان الكامل**»؛ ذلك أنّ أوّل فيضٍ لله عزّ وجلّ وأوّل مخلوقٍ خلقَه هو وجود النبيّ صلّى الله عليه وآله المبارك ومقام روحه النورانيّ. فكلّ الحقائق الموجودة في القرآن الكريم متوفّرة في النبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام، **فتلك الذوات النورانية تمثّل «الوجود العينيّ» لحقيقة القرآن.**

أوّلُ فيضٍ

لله عزّ وجلّ

وأوّلُ مخلوقٍ

خلقَه هو وجود

النبيّ صلى الله عليه وآله

المبارك ومقام

روحه النورانيّ

الرسالة في صحبة الحقّ

إنّ للانسجام بين التكوين والتشريع، وللتناسق بين الطبيعة والشريعة مظاهرَ؛ من أبرزها تمحور النظام الحقيقيّ «الوجود والعدم»، والنظام الاعتباري «ما ينبغي وما لا ينبغي» حول محور الحقّ ودورانهما في فلَك الحقيقة.

يقول الله تبارك اسمه في وصفه لهيكلية خلقه النظام الكوني: لقد جعلنا عالم التكوين مصاحباً للحقّ ومكسوّاً به حتّى لم يعد أيّ مجال للّهو واللّعب والفتور والوهن والضعف إلى حريمه الرصين وجداره المرصوص؛ وذلك بقوله عزّ من قائل:

- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ..﴾ الحجر:٨٥.
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ الدخان:٣٨.
- ﴿..رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ..﴾ آل عمران:١٩١.
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ..﴾ ص:٢٧.

كما أنّه قال في تبيين العناصر الجوهرية لإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وتكليم الوحي، ما نصّه:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ..﴾ البقرة:١٧٦.
- ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ..﴾ فصلت:٤٢.

وكما أنّ باستطاعتنا القول فيما يتّصل بتبيين هيكلية الخلقة: إنّ الخلقة مرتبطة بالمبدأ الفاعلي من جهة، وهي تُعَدّ فعلَه من جهة ثانية، وإنّ حقّانية فعل الفاعل إنّما تتجلّى في تمحور الكيفية

الوجودية للمخلوق حول الحقّ والحقيقة؛ لأنّ التفاوت بين الإيجاد والوجود هو قضيّة اعتبارية، فإنّ بمقدورنا القول أيضاً، فيما يخصّ تحرير العناصر المحورية لرسالة النبيّ ونزول الوحي: إنّ الرسالة مرتبطة بالمبدأ الفاعلي من ناحية، وهي تُعتبر فعلَه من ناحية ثانية، وإنّ حقّانية الإرسال تتمثّل في تمحور الرسالة حول الحقّ ودورانها حول الحقيقة، أي الكيفية التي يحبّها الله للدين والإسلام هي ممّا لا سبيل للّهو واللّعب أبداً إلى حريمه.

ومع الحفاظ على هذه الالتفاتة الأصيلة، فإنّ حرف «**الباء**» يفسَّر تارةً بمعنى المصاحبة، وحيناً بمعنى الملابسة، وطوراً يكون سببيّاً وما شاكل ذلك، كما أنّه يشار في تعيين متعلّق قوله: ﴿**بِالحقّ**﴾ إلى «**الإرسال**» حيناً، وإلى «**البشير**» و«**النذير**» حيناً آخر، حيث يلاحَظ عبر التدقيق في هذا المبحث الأصلي أنّه لا وجود لفرقٍ أساسيّ بين الوجوه المذكورة.

وعلى أيّ تقدير، فالنبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله هو رسولٌ بالحقّ وهو بالحقّ نزل؛ فلم يرسله غيرُ الله، وحيث إنّه رفيق الحقّ ومتّشحٌ بردائه فهو لم ينظر أثناء الطريق إلى غير الله، كما أنّه لم يَنفُذ غيرُ الله إلى نفسه أصلاً؛ ومن هذا المنطلق، فإنّه لم ينقص من رسالته ولا زاد عليها في الطريق شيء. فلقد نطق الله سبحانه بكلامه بالحقّ، وقد تلقّاه المتلقّي – المتّصف بتمام القابلية – بالحقّ أيضاً، والقرآن الكريم منذ مبدأ تنزّله إلى محطّ نزوله على قلب النبيّ صلّى الله عليه وآله قد كان بالحقّ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ..﴾ الإسراء:١٠٥. كما أنّ حمَلَة الوحي هم الجنود الأمناء للباري عزّ وجلّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ الشعراء:١٩٣-١٩٤. فلا سبيل للمخالفة – سواء أكانت عن عمد أو عن جهل وسَهو ونسيان – إلى الحرم الآمن للروح، الذي هو الملَك الأمين.

وتأسيساً على ما مرّ فإنّ ما وصل إلى القلب المطهّر للرسول الأعظم صلّى الله عليه وآله بعد التنزّل من ذات الله سبحانه وتعالى هو عين الوحيُ، وإنّ ما بلّغه هو إلى المجتمع البشريّ هو حقٌّ أيضاً وهو ذات الوحي؛ ذلك بأنّ لسانه المطهَّر صلّى الله عليه وآله هو أيضاً منزَّه عن الزيادة والنقصان؛ أي كما أنّ يد النبيّ صلّى الله عليه وآله في «مقام الفعل» هي يد الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ..﴾ الفتح:١٠، فإنّ كلامه في «مرتبة الفعل» هو أيضاً حقّ وكلام الله تعالى. فإذا وصل الوحي إلى البشر فإنّهم إمّا أن ينتفعوا منه فيختاروا سبيل السعادة، وإمّا أن يحرموا أنفسهم منه فينتخبوا طريق الشقاء، فالنبيّ الأكرم صلّى الله عليه وآله يبشّر أهل السعادة بنعيم الجنّة، ويُنذر أهل الشقاء من نار جهنّم: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ..﴾ البقرة: ١١٩.

الذّوات النورانيّة لرسول الله وأهل البيت عليهم السلام تمثّل «الوجود العينيّ» لحقيقة القرآن الكريم

يدُ النبيّ صلى الله عليه وآله في «مقام الفعل» هي يد الله عزّ وجلّ، وكلامُه في «مرتبة الفعل» كلامُ الله تعالى